الباب الثانى

خصائص الأدبين

العربى والأوربى

الفصل الأول

خصائص الأدب العربي

بينما كانت آداب الأمم القديمة ذات الحضارات تستمد أغلب موضوعاتها من الأساطير والمعتقدات الدينية ، انتشر فى الجزيرة العربية ، لأول مرة فى التاريخ ، شعر مختلف الطراز ، يتحرى ناظموه الصدق فى التعبير عن مشاعرهم ، وتصوير المشاهد التى تحيط بهم ، والأحداث التى تقع لهم . . . شعر يفسر حياة الناس واهتماماتهم تفسيراً واقعيًّا صادقاً دون أن يلجأ ، مثل القصص الهندية والفارسية والمصرية القديمة ، ومثل ملاحم الإغريق ومسرحياتهم ، إلى المبالغة غير المقبولة وإلى التفسير الأسطورىّ الوثنىّ غير المعقول .

ولسنا ننكر أن لهذه الحقيقة التاريخية استثناءاتها ، فالأدب المصرىّ القديم لم يعدم قصصاً وأغانى وأشعاراً يعكس بعضها الواقع فى صور وتشبيهات شعرية ، ويعبر بعضها الآخر عن الخلجات العاطفية ؛ وقد يتعرض لبعض المشكلات الاجتماعية ، أو يسفه المعتقدات العتيقة ، وينوه بالمعتقدات المستجدة . . . ومن أمثلة ذلك قصة « سنوحى » التى قال عنها « أدولف إرمان » : « إنها تتحدث عن وقائع حقيقية ، وتصف ما حدث لمصرىّ حكم على نفسه بالغربة عن وطنه لسبب غير واضح ، وعاش عشرات السنين بين رجال البدو السوريين . ويمتاز موضوعها ببساطته وخلوه من كل ما هو غير طبيعىّ . ولذلك يظن أن شهرتها التى بقيت مدة قرون عديدة إنما ترجع إلى أسلوبها شبه الشعرىّ » [1] .

وهذه القصة من مخلفات الدولة المتوسطة. وهناك قصة أخرى معاصرة لها معروفة باسم « الفلاح الفصيح » . وهى بدورها تتميز بأسلوبها الجميل الذى يصور حادثاً وقع لفلاح استولى أحد الموظفين على غلة أرضه ، فشكاه الفلاح إلى رئيسه ، أى رئيس الموظف ، وأثارت الشكوى إعجاب الرئيس ، ورفعها إلى الملك الذى وجدها

---

(١) كتاب « مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة » ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ص ٣١٢ .

تحفة أدبية نادرة . فأمر بإرجاء البت فيها حتى يتبعها كاتبها بشكاوى أخرى . . . وقد علق« أدولف إرمان » على هذه القصة بقوله : « إن أسلوبها الفخم يؤثر إبراز الفكرة فى تعبير فنىّ يصعب علينا اليوم أن نقدره تمام التقدير » . واختار منها المقتطفات التالية :

« انظر ، إنك لرئيس وبيدك الميزان
فإذا اختل هذا الميزان فإنك تختل أيضاً . . .
لسانك هو ذلك اللسان الصغير للميزان
وقلبك هو تلك الصنجة . . .
فإذا سترت وجهك عن الظالم
فمنذا الذى يستطيع دفع العار ؟ . . . »(١)

وقد ذكرنا فى الفصل الثالث من بحثنا هذا أمثلة أخرى من الأدب المصرىّ القديم غير الأسطورىّ . فهناك المنظومات التى تمجد فرعون ، والمنظومات التى تسفه المعتقدات الدينية الوثنية ، وتغرى الناس بالإقبال على الحياة وتذوق متعها ؛ وهناك رسالة « إيبوؤر » التى يصف فيها كاتبها ما نشب فى عصره من صراع طبقىّ . . . ولم يخل الأدب المصرى القديم كذلك من قصائد غزلية يصف فيها الشاعر محاسن حبيبته ، ويعبر عن شغفه ولوعته ، بل إن هناك شعراً تعبر فيه الفتيات أيضاً عن شغفهن ولوعتهن . . . ولعل هذا هو أول شعر فى التاريخ عبرت فيه المرأة بحرية عن عواطفها ، وهو يدل على أن المرأة المصرية فى العصر القديم كانت تتمتع بشجاعة أدبية ، وإرادة مستقلة ، وتستطيع المجاهرة برأيها فى صراحة على عكس ما كانت عليه حال المرأة فى بلاد الإغريق .

وقد أوردنا فى الفصل الثالث من كتابنا هذا أيضاً أمثلة س الأدب الإغريقى غير الأسطورىّ منها مسرحيات « الفرس » و « العصر الذهبى » و « جمعية النساء » ، ومنها قصائد للشاعر هيسيود ، وأخرى للشاعرين « تيبونيس » و « أناكريون » . بيد أن هذه الأعمال ليست إلا استثناء من القاعدة العامة . . .

والذى يدقق فى دراسة الأدب الإغريقى ، لا سيما الأسطورىّ منه ، يجد مشابه

---

(١) ص ٤١٣ من الكتاب المذكور .

كثيرة بينه وبين الأدب المصرى الأسطورىّ القديم .

أما الشعر العربىّ الجاهلىّ فلا يبدو أنه تأثر بالأدب الإغريقى فى قليل أوكثير ؛ وهو إذا اختلف كذلك عن الأدب المصرىّ القديم فليس هناك ما يدحض الاعتقاد بأنه نبع ، فى نشأته الأولى ، من الأغانى المصرية العاطفية ، ثم تطور حتى أصبح له ذلك الكيان المستقل ، والطابع الفريد فى نوعه .

وفى عصر الجاهلية عرف العرب الأساطير التى ترامت إليهم نوادرها من البلاد المحيطة بهم ؛ وقد أشار « جواد على » إلى ذلك . . . وأشار إليه « جورجى زيدان » أيضاً . ومما قاله هذا الأخير : « . . . ويلحق بعلم النجوم ما يعبر عنه الفرنجة بالميثولوجيا — أى الأساطير — وهى أحداث يزعمون وقوعها بين الكواكب التى اتخذوها آلهة لهم ، وهى شبيهة بالأحداث التى تقع للبشر . . . وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه »[1] .

ومما قاله أيضاً فى هذا الصدد : « ومن الأقاصيص الميثولوچية التى كان العرب يتناقلونها أن " الدبران " خطب " الثريا " ، وأراد القمر أن يزوجه بها ، فأبت ذلك وقالت للقمر : " ما أصنع بذلك السبروت الذى لا مال له ؟ " ، فجمع الدبران قلاصة يتمول بها ، وظل يتبع الثريا حيثما توجهت ، ويسوق صداقها قدامه . . . وأن سهيلا دفع الثريا فركلته وطرحته حيث هو ، وضربها بالسيف فقطع وسطها . . . وأن الشعرى اليمانية كانت مع الشعرى الشامية ففارقتها ، وعبرت المجرة ، فسميت الشعرى العبور ، وبكت الشعرى اليمانية حتى غمصت عينها فسميت الشعرى الغميصاء . . . ومن هذا القبيل تأليههم لبعض الملوك أو القادة . . . وأصل هذه المعتقدات إما هندى ، وإما مصرى أو يونانى . . . أما الكلدان فقلما كانت لهم عناية بأمثال ذلك »[2] .

ومن المستبعد أن تكون اليونان القديمة من بين المصادر التى استقى منها العرب أساطيرهم ، فالرأى الراجح أن كلا من الإغريق والعرب استقوا معتقداتهم الأسطورية من مصر القديمة ؛ وكانت هذه المعتقدات المصرية تتجه شرقاً ، وتسلك ، على

---

(١) كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ص ٢٠٧ من الجزء الأول .

(٢) ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ من المرجع المذكور .

الأغلب . طريق الحبشة ، وتنتقل منها إلى اليمن التي كانت تصدّرها بدورها إلى سائر البلاد العربية .

وليست الأقاصيص الميثولوجية التي أشار إليها جورجي زيدان في كتابه المذكور هي أهم أساطير [١] العرب أو ألطفها معنى ومبنى . فهناك أسطورة « سدّ مأرب » ذات المغزى الإنسانيّ ، وملخصها أن ذلك السد وفر الماء ، بعد إقامته ، لمملكة سبأ ، وحول صحراءها إلى جنات يانعة وافرة الظلال ، ولكن إحدى ملكات سبأ لم تعدل في توزيع الماء على رعاياها ، فلم يرض إله المطر ، بحسب زعم الأسطورة ، عن ذلك الظلم ، وغمر الأرض بغيث لا ينقطع ، فانطلق السيل العرم وهدم السد ، وحل عقب ذلك جفاف صوح الزرع ، وحول الأرض المخضوضرة ثانية إلى صحراء جرداء .

ومن الأساطير العربية الموغلة في القدم أسطورة « إساف » وحبيبته « نائلة » ، وملخصها أن الحب تمكن من قلبي هذين العاشقين . ولم يجدا مكاناً يجتمعان فيه خفية غير الكعبة ، فاعتادا أن يختليا هناك ويتناجيا بعيداً عن أعين الناس . ولكن الآلهة لم ترض عن ذلك ، وحظرت عليهما اللقاء في حرمها ، ودار بين نائلة وإساف حوار أدبي جميل عن الحب الطاهر وقدسيته ؛ وتساءل إساف من الذي يرعى مثل ذلك الحب إذا لم ترعه الآلهة ؟ ! وواصل الحبيبان لقاءهما في الكعبة فحولتهما الآلهة إلى صنمين . ولم يلبث الناس أن ألهوهما وعبدوهما . . .

ولا شك أن وراء كل صنم من الأصنام التي عبدها العرب أسطورة كأسطورة إساف ونائلة ، وأن هذه الأساطير صيغت في قوالب أدبية . والذي يلفت النظر أن العرب لم يهتموا بحفظ أساطيرهم مثلما اهتموا بحفظ عيون شعرهم الذي يغلب عليه النوع الحماسي والتصويري . ومما يلفت النظر أيضاً أن مؤرخي الأدب لم يتعمقوا بحث هذه الظاهرة الفريدة في بابها [٢] . . . وهناك مفكرون غربيون يحسبون أن

---

(١) خوفاً من التباس المعنى الذي نقصده بكلمة « أساطير » نقول إننا نستعملها مقابل كلمة « ميثولوجيا » ، وهي القصص والملاحم التي تتخذ من المعتقدات الوثنية موضوعات لها ، وتفسر أحداث الحياة وظواهر الطبيعة على ضوء تلك المعتقدات ، وتنسبها إلى تدخل الآلهة ، وأنصاف الآلهة في شئون البشر . ومن الواضح أنها تختلف عن القصص الخرافية التي يستهدف بعضها استثارة الخيال بتصوير أحداث تقع بين الآدميين من ناحية ، والجان والغيلان والعمالقة والأقزام وغيرهم من ناحية أخرى ، دون تدخل قوى غير منظورة في تلك الأحداث ؛ ويستهدف بعضها الآخر أهدافاً تربوية بإجراء الحكمة على ألسنة بعض الحيوانات .

(٢) رأى بعضهم أن الدين الإسلامي هو الذي حمل العرب على إهمال تدوين أساطيرهم الوثنية ، ولكن هذا القول مردود بأنه لو كان لهذه الأساطير قيمة أدبية لما خلا الشعر الجاهلي ، المدون قبل ظهور الإسلام — كالمعلقات مثلا ، من أية إشارة إليها .

الأدب العربي القديم خلو من الأساطير والشعر القصصيّ . ويعللون هذا الحسبان بافتقار العرب إلى موهبة الخيال . ومن المؤسف أن الكثيرين منا يصدقون تلك الفرية دون تمحيص ، ويكررونها بلا وعى . ونحن ننقل على سبيل المثال قول بطرس البستانى فى ذلك :

« . . . للبدوىّ عين متنبهة لالتقاط المرئيات ، ومخيلة مصورة تحسن تقليد الأشياء ، ولكن ليس له الخيال المبدع الذى يختزن المحسوسات ويجمع بعضها إلى بعض ثم يحللها ويركبها ليخترعها صوراً جديدة ، أو يخلقها خلقاً مبتكراً . . . وهو موجز ، وهذا الإيجاز يعود فى معظمه إلى قصر النفس ، ونضوب منابع الخيال المبدع ، فلم يتوافر له عمل الملاحم والقصص الطويلة . ذلك لأن باديته القاحلة ، الفقيرة فى مناظرها الطبيعية غير قادرة على تغذية الخيال وإنمائه . وهى فى اعتزالها وتمردها على الفاتحين لم تقبل لقاح الثقافة اليونانية ليرتقى أدبها ، ويخرج عن حدود وجدانيته الضيقة مع أنها مجاورة للولايات البيزنطية . . »[١]

هذه هى فى واقع الأمر آراء جماعة من الأوربيين المتعصبين لا تعترف لأى أدب قديم بقيمة ما إذا لم يكن مشابهاً ، بل مطابقاً للأدب الإغريقى الوثنى . وقد دلت على ذلك بأجلى بيان تتمة قول بطرس البستانى ، فهى تعكس تلك الآراء دون تحوير ، ومما جاء فيها :

« لم تكن عقائد العرب الدينية — قبل الإسلام — ذات أثر فعال فى تلطيف استغراقهم فى المادية ، لأن الدين كان ضعيفاً فى قلوبهم . ومع كثرة أربابهم لم يتيسر لهم أن ينضدوا مراتبها ، ويرفعوا لها (مجتمعاً) علويًّا تنتظم فيه شئونها ، فتتبين علاقة بعضها ببعض ، ثم علاقاتها بالناس ، وما يبدو خلال ذلك من طباعها وأخلاقها وأهوائها . فبقيت آلهتهم فردية كبيئتهم الاجتماعية ، متمردة كصحرائها ، بعيدة عنهم ، لا توحى إليهم ولا يستوحونها إلا غراراً . . . »[٢]

هذا القول لا يدع مجالا للشك فى أن مردديه يتشبثون بضرورة اتخاذ الأساطير الإغريقية الوثنية نموذجاً يقيسون به قيمة الآداب الأخرى . .

واتجه جورجى زيدان اتجاهاً آخر ، فقد حسب أن خلو الأدب العربى من

---

(١) كتاب الشعراء الفرسان ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦ .

الشعر القصصى أو التمثيلى ، وصمة عار ينبغى أن يدرأها عنه ، فقال مدللا على أن العرب عرفوا هذا اللون الأدبىّ :

« إذا أمعنا النظر فيما خلفه العرب من أخبارهم وآدابهم وجدناه لا يخلو من التمثيل بأعم معانيه ، وإذا لم ينظم كله شعراً فهو مزيج من الشعر والنثر . وقد وصل إلينا فى قالب القصص والوقائع التاريخية . لكن أكثرها فى نظرنا موضوع مبتدع ، أوله أصل واقعىّ فوسعوه وطولوه ونمقوه ليكون عبرة أو قدوة فى الموقف المطلوب . وأكثر تلك القصص ترمى إلى تمثيل الفضائل البدوية التى يقدسها العرب تمثيلاً يحببها إلى الناس ويرغبهم فيها . . . »(١)

ولكنه سلم مع ذلك بأن أكثر شعر العرب غنائى عاطفىّ ، وحاول تعليل ذلك بقوله :

« إن العرب أقوى الأمم شاعرية ، وأقدرهم على نظم الشعر الغنائىّ ؛ يدلك على ذلك عدد شعرائهم ، وضروب الشعر الذى نظموه فى قرن واحد وبعض القرن قبل الهجرة . ولذلك أسباب أهمها :

أولاً — أن العربى بفطرته ذو نفس حساسة ، وشعور راق ، وأريحية وأنفة ، سريع الطرب ، سريع الغضب . ولذلك كان أكثر شعر العرب غنائيًّا أو موسيقيًّا يعبرون به عن إحساسهم ، ويصورون شعورهم .

ثانياً — أن لغتهم شعرية لما فيها من أساليب الكناية والاستعارة ، ودقة التعبير ، وكثرة المترادفات التى تيسر وجود القافية .

ثالثاً — صفاء جوهم ، وتفرغهم للتأمل فى الطبيعة ، فإن أهل الجو الصافى تكون أذهانهم صافية ، لا سيما إذا كانوا أهل خيال وتصور مثل العرب ؛ والصفاء يزيدهم شاعرية . . . وكذلك يبعثهم على قول الشعر ما كان يدور بينهم من حروب ومنافسات(٢) . . . »

يعلل جورجى زيدان قدرة العرب على نظم الشعر العاطفى الغنائى بقوة شاعريتهم المتولدة من إحساس مرهف بالفطرة ، ومن خيال وتصور ؛ فهل لهذه الصفات

(١) كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، الجزء الأول ص ٦٣ .

(٢) صفحة ٦٨ من المرجع السابق .

دخل فى اتجاه أصحابها إلى نظم هذا النوع من الشعر بالذات ؟ هل هى تحول دون اتجاههم إلى نظم أنواع أخرى من الشعر ؟ ! . . إن هناك فارقاً كبيراً بين أنواع الأدب ، وبين خصائصه ومميزاته . . . فأنواعه لا تظهر وتروج فى أمة من الأمم ، خلال عصر من العصور ، نتيجة لصفات يتميز بها أفرادها ، ولكن نتيجة لظروف اجتماعية واقتصادية تطرأ عليها ؛ أما خصائص أدبها ومميزاته فهى التى ترجع إلى الصفات الغالبة على أفرادها — فى حقبة من الزمن — وإلى تقاليدها ومعتقداتها وطبيعة بلادها . . . وعلى ضوء هذه التفرقة سنحاول ، فيما بعد ، تفسير ظهور النوع الحماسى والتصويرى فى الشعر العربىّ القديم ، وغلبته على سائر أنواع الشعر .

وكذلك ينسب جورجى زيدان « شاعرية » العرب إلى لغتهم التى « توافرت فيها أساليب الكناية والاستعارة ودقة التعبير » . . . وكان أولى به أن ينسب أساليبهم البيانية إلى شاعريتهم ، فهى متولدة منها .

بيد أنه لاحظ بحق صدق الشعر العربىّ القديم فى تصويره للواقع ؛ وقال فى ذلك : « القاعدة فى النظم عن شعراء الجاهلية تتمثل فى بيت شاعرهم وحكيمهم زهير بن أبى سلمى وهو :

وإن أشعر بيت أنت قائــله ... بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فالبدوىّ إذا تيمه الحب ، وأراد التعبير عن شوقه وهيامه يصف ما يشعر به تماماً ، فإذا سمعه متيم يشعر بمثل شعوره ؛ ذلك أنه لا يبالغ فيما يقول . . . وهذا المذهب يأخذ به جماعة من شعراء هذا العصر وكتابه فى أوربا ، فيصورون الطبيعة كما هى ، ويعرفون بالواقعيين ، ومنهم زولا وتولستوى . . . »(١)

ويتمرع جورجى زيدان هنا مرة أخرى فيعلل الاتجاه إلى الواقعية بأن العرب فى الجاهلية فطروا على البساطة الطبيعية ، وعنوانها الصدق بكل معانيه . . . ولكن قصور هذا التعليل يبدو واضحاً إذا لاحظنا أن الأمم التى شاع بينها الأدب الأسطورى كانت أشد بساطة وسذاجة من العرب القدامي .

وفيما يتعلق بواقعية الأدب العربىّ القديم قال جورجى زيدان أيضاً : « . . . الباحث فى شعر الجاهلية يستخرج منه عادات العرب وآدابهم وأخلاقهم

(١) المرجع المذكور ص ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٠ .

وطبائعهم وسائر أحوالهم ؛ ولذلك قال ابن خلدون: " إن الشعر ديوان علوم العرب، وأخبارهم ، وشاهد صوابهم وخطئهم ، وأصل يرجعون إليه فى الكثير من علومهم وحكمهم " ونزيد على ذلك أنه مستودع عاداتهم وأخلاقهم وأدواتهم وصناعاتهم ..»[١]

وقد صدق فى ذلك ؛ فبينما شعر الإغريق الملحمى يصور عالماً وهمياً لا تكاد تقوم صلة بينه وبين الحياة الحقيقية للمجتمع الإغريقى ، ويصف آلهة وعمالقة وفرساناً يتميزون بقدرات غير آدمية ، ويحققون الخوارق ، وينساقون وراء شهوات وأطماع وأحقاد وحشية . ويأنفون أن تغلب عليهم الرحمة ، أو يمس قلوبهم حب أو حنان ، ويرتكبون فى سبيل تحقيق غاياتهم آثاماً تتقزز منها النفوس ، ولا يعتدون على الأحياء فحسب ، ولكنهم يمثلون بالجثث . . . والمرأة قاسية كالرجل ؛ فهناك امرأة تشترك مع عشيقها فى قتل زوجها ، والتنكيل بأبنائها ؛ وهناك أخرى تحرض أخاها على قتل أمهما فيقتلها فعلاً ؛ وأخرى تتزوج بابنها . . . بينما كان ذلك الشعر يرسم تلك الصورة الشوهاء لمجتمعه ، حرص الشعراء العرب القدامى على تصوير عالمهم الحقيقى بما فيه من خير وشر ، وتحليل عواطفهم كما أحسوها ، ووصف الأحداث على نحو ما وقعت لهم ، فإذا لجأ بعضهم إلى شىء من المبالغة لم تخرج مبالغته عن الحد المستساغ ، ولم تموه الواقع .

وبينما لم يقصد الشعراء الإغريق المتجولون من إنشاد ملاحمهم الأسطورية إلا تسلية المستمعين إليهم وإمتاعهم ، وإرضاء نزعاتهم الدينية ، كانت قصيدة واحدة من الشعر العربى القديم ، بل ربما كان بيت واحد منه كفيلاً أن يشعل نار حرب شعواء بين القبائل ؛ وربما بيت آخر كان يعيد السلام بين الربوع ، ويستل الحقد من القلوب ، ويغرس مكانه الحب والإخاء . . . كان ذلك الشعر قوة فعالة فى مجتمعه ؛ يتأثر به ويؤثر فيه ، ويزيد أفراده معرفة بأنفسهم وبالحياة . . . ويخطئ من يظن أنه لم يعكس من الواقع إلا سطحه ، فكم تضمن من حكم ووجهات نظر نبعت من الصميم ، وكشفت عن مفاهيم جديدة للحياة . . . كان بحق « ديوان علوم العرب وأخلاقهم وأخبارهم » . . . فى حين كانت حكم الشعر الإغريقى أقرب إلى أن تكون مواعظ تربوية ؛ وكانت الوقائع والعادات التى يعكسها فى بعض

---

(١) المرجع المذكور ص ٩٤ .

الأحيان ، وتمت إلى الواقع بصلة ، تختلط بأضاليل الوهم إلى الحد الذى تنطمس معه معالمها .

ولسنا نقصد مما تقدم تجريد الأدب الأسطورىّ من قيمته ، فقد نمّ ولا شك على خطوة أولى واسعة خطتها الأمم التى ابتدعته فى سبيل التقدم الحضارى ، ودلّ على رقىّ إدراكها الحسىّ ، وذوقها الأدبىّ . . . وإذا كان أمرها كذلك ، فإن الشعر العربىّ القديم ينمّ بدوره على يقظة العرب العقلية . . . واليقظة العقلية ، باعتراف هجل نفسه ، وهو من غلاة المتحمسين للأدب الأسطورى ، مرحلة تطورية أكثر تقدماً من مرحلة اليقظة الحسية ؛ ولا اعتبار بعد ذلك لقوله إن النمو العقلى يقضى على دولة الأدب ، فلا يعقل ، كما قلنا ، أن يتنافى نمو وعى الإنسانية مع تقدم أدبها . . . ولا اعتبار بالتالى لرأى من ينتقصون الشعر العربىّ على أساس أن واقعيته جردته من الخيال ، وقصّت أجنحته ؛ فهم يخلطون بين الخيال والوهم ، على وضوح الفارق بينهما ، فالشعراء العرب لم ينقصهم التصور والخيال ، ولكن نضجهم العقلى حال دون استرسالهم وراء شطحات الأوهام ، وهداهم إلى نظم شعرهم الواقعىّ الذى يرى المفكرون الأوربيون المنصفون أنه « تقليد أدبى جديد » سدد خطوات أدباء أوربا فى العصر الوسيط ، وبصرهم بطريق النهضة الأدبية الحديثة .

وآن لنا أن نحاول الوقوف على الملابسات والأسباب الحقيقية التى ميزت العرب عن غيرهم من أمم زمانهم ، وجعلتهم يسبقونها إلى نظم ذلك الشعر الواقعىّ الذى لعب دوراً حاسماً فى ترقية مستواهم العقلى والأخلاقى ، وفى تهيئتهم لتقبل رسالة الإسلام ، واضطلاعهم بالنهضة الحضارية العربية التى بهرت أهل زمانها ، ولا تزال تبهر من ألمّ حتى بطرف منها . . .

كان الشعراء المتجولون فى العصر القديم يساهمون فى نظم الملاحم الأسطورية ، وينشدونها بين الناس بقصد إمتاعهم ، كما قلنا ، فلا عجب أن يستعينوا بشطحات الخيال ، ويجنحوا إلى التهويل والإغراب ليستحوذوا على ألباب المستمعين . ولكن الجزيرة العربية لم تعرف ، فى العصر القديم ، هذا النوع من الشعراء ، وكان رواة شعرها يتناقلونه خلفاً عن سلف ، ويحرصون على صيانته من كل تغيير أو تحريف ، ولذلك اختلف شعر العرب عن شعر الأمم الأخرى المعاصرة لهم . . . وقد حام

جورجى زيدان حول سبب هذا الاختلاف ، ولكنه لم يدرك كنهه ، أولم يستخلص النتيجة التى كان من الميسور استخلاصها منه . فقد قال :

« الشعراء فى الجاهلية كلهم عرب ، ومعظمهم أهل بادية ورحلة ، متشابهون فى أخلاقهم وأغراضهم ، والحرب كانت أهم ما يشغلهم فى القرنين السابقين على الإسلام ، يوم كان البدوىّ يبيت وسيفه أو رمحه ضجيعه ، فكأنه يتحفز للغزو فى الصباح . . . والشاعر لسان حال قبيلته ، أو مرآة أخلاقها وآدابها . ولذلك كان أكثر شعراء الجاهلية من أهل الحرب الفرسان الشجعان . . . »(١)

وقال أيضاً : « الشعراء الفرسان هم أكثر شعراء الجاهلية ، لأن الفروسية والحرب من طبائع أهل البادية ، وقل فيهم الشعراء الذين لم يركبوا ، أو لم يغزوا . . . »(٢)

والنتيجة التى لم يستخلصها هى أن هؤلاء الشعراء الفرسان كانوا يعبرون بالشعر عن تجارب ذاتية ، على خلاف غيرهم من شعراء الأمم الأخرى الذين كانوا يستمدون وقتذاك موضوعات قصصهم الملحمية من أخبار ترامت إليهم عبر القرون بعد أن موّهتها إضافات المبالغات والأوهام .

لم يكن الشاعر العربى القديم يستطيع أن يدعى الدعاوى الكاذبة عن بلائه فى الحرب ، فهو لا يخوضها وحده ، ولكن إلى جانب شهود من أقرانه الفرسان يأنف أن يبدو أمامهم كاذباً ، وكذلك يأنف أن يبدو كاذباً أمام أعدائه الذين حاربهم ، وهذا من الأسباب الهامة التى جعلت شعره يتسم بالصدق فى الوصف .

اعتاد البدوىّ فى الجاهلية أن ينام ورمحه أو سيفه إلى جانبه ، كما قال جورجى زيدان ، ذلك أن طبيعة الحياة البدوية فى الصحراء كانت تفرض على مختلف القبائل خوض المعركة تلو المعركة لاحتلال عيون الماء ، والحصول على الرزق ، أو للدفاع عن العيون التى احتلوها ، والأسلاب التى غنموها ، أو للأخذ بثأر من ماتوا من فرسانها ، فأصبحت الحرب سجالاً بينها . . . ولم يعد وسط هذا المعمعان الذى لا تخمد ناره ، مكان لخائر أو رعديد . واعتاد المقاتلون مخاطر الحرب التى يتعرضون لها دون انقطاع وخفّ عندهم أثر الرهبة القاتلة التى تنتاب من لم يتعوّد

(١) المرجع السابق ص ١٠٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٢ .

القتال ، وتأصلت فيهم الشجاعة مع مرور الزمن ، لا سيما بعد أن أحس الفارس حاجة القبيلة إليه ، واعتمادها فى كل آونة عليه ، وبعد أن أصبح حامى حماها ، وملاذ نسائها وأطفالها ؛ وقد ضاعف ذلك من اعتداده بنفسه ، واعتزازه بشجاعته وبطولته ؛ وجاشت بين جوانحه خوالج النخوة والشهامة ، وحوافز نصرة الضعيف ، ونجدة الملهوف ؛ وأصبحت للمرأة مكانة رفيعة من نفسه ، بل أصبحت عنده أغلى من حياته ما دام أنه يبذل حياته فى سبيل الدفاع عنها ، وعرفت المرأة عندئذ قدرها عنده ، فتمنعت ودلّت وعفت ، فألهب ذلك أشواقه ، وبعث فى قلبه ، لأول مرة فى تاريخ الإنسانية ، مشاعر جديدة غير الرغبة الجسدية . . . مشاعر الهيام بالحبيبة ممزوجاً بالتقدير والإجلال . . .

وفى هذه البيئة ، و وسط ظروفها وملابساتها ، تبلورت تلك الصفات التى دعاها الناس فيما بعد تقاليد الفروسية ، واقتبستها أوربا عن العرب فى العصر الوسيط ، وتخطت بها عهد الهمجية إلى عهد التحضر .

ولم يخف على الفارس الجاهلى أن الكذب ديدن الجبناء ، والصدق ديدن الشجعان ، فكان ذلك من أسباب حرصه على الصدق حتى فى نظمه لشعره ، سواء أتضمن ذلك الشعر وصفاً للظواهر التى تبدو حوله ، والأحداث التى تقع له ، أم تعبيراً عن الخواطر التى تخطر على باله ، والمشاعر التى تجيش فى صدره . . . وقد وضح هذا الاتجاه فى بيت زهير الذى سبقت الإشارة إليه .

وإذا عدنا إلى شرحنا السابق لعوامل التطور المحلية والخارجية ، وطبقناه على الشعر العربى وجدنا ، على ضوء ذلك التطبيق ، أن الشعر المذكور لم يثبت على حال ، على الرغم من تميزه دائماً بطابع خاص مستمد من طبيعة الجزيرة العربية ، وصفات أمة العرب ، وتقاليدها المتولدة من ظروفها وملابساتها . . . فالأدب الجاهلى مر بمراحل تطورية عديدة ، متأثراً بالصراع المستفحل بين القبائل ، ونمو إدراك العرب نتيجة لازدياد خبرتهم ، ولإفادتهم من معارف جيرانهم الوافدة عليهم ، وتكاثر القبائل ، وتحول بعض شيوخها إلى ملوك ، وسكناهم القصور ، وإحاطة أنفسهم بمظاهر الأبهة والبذخ ، ونمو بعض المدن والبلدان ، وتردد الشعراء على من فيها من ذوى الجاه والسلطان ، وانفعالهم بعيشة الحضر وما انتشر بين أهلها من ميول

وأفكار لم يألفوها . . . ولكن التغير الجذريّ لم يطرأ على الأدب العربي إلا بعد بزوغ فجر الإسلام ، وانتشار تعاليمه السامية ، وتأثيرها فى الناس ، وتهذيبها للنفوس ؛ ثم ما أعقب ذلك من فتوحات ، ومن اختلاط العرب بشعوب البلاد التى غزوها ، واتساع رقعة الدولة الإسلامية باستعراب بعض تلك الشعوب ، وانخراطها فى سلكها ، ونقل آدابها إلى اللغة العربية ، وإمدادها بألوان أدبية جديدة عليها ؛ وظهور المدن الكبيرة ، وازدياد ثروات الأثرياء ، وتوفر مقومات الحضارة الإسلامية التى بهرت العالم فى ذلك الأوان .

فى هذا الجو الجديد الخالب للألباب اشتعل الخيال ، واضطربت الأحاسيس ، واستنار الفكر ؛ ونشطت الحركة الأدبية مسايرة لمختلف نشاطات المجتمع الجديد ، وملائمة لذوقه المتطور . ولم يعد الشعر وقفاً على الشعراء الفرسان ، مقتصراً على أبواب الفخر والحماسة والرثاء والعتاب والتشبيب ، ووصف مشاهد البادية وأحداثها ؛ ولكن مارسه شعراء اختصوا به ؛ ولم تقتصر منظوماتهم على التعبير عن خوالجهم وانطباعاتهم الذاتية البحت ، ولكن تعدى أغلبها هذا النطاق ، وطرق موضوعات عامة ، وعبر عن ميول وأفكار سائدة ، وناقش مشكلات اجتماعية ، وانتقد عيوباً متفشية . . . وجارى من ناحية الشكل ذوق العصر ، كما اهتم من ناحية المضمون باهتمامات أهل العصر ، فسلس أسلوبه ، ورقت ألفاظه ، وعذبت موسيقاه ؛ وعكس الواقع الجديد ، فصور بعضه المنشآت الحديثة ، وحياة القصور ، ومجالس الشراب ، وفنون الطرب من غناء وعزف ورقص . . . ولم يهمل بعضه الآخر الموضوعات الجادة ، فحاول أن يلقى الضوء على كنه الحياة ، ويفسر غوامضها ، ويشرح طبائع البشر ، ويحلل مختلف ميولهم وأهوائهم ، وينقب عن حوافز الخير والشر فيهم ، وينتصر للمظلومين ، ويتصدى للظالمين والمتآمرين ، ويناضل فى سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ... واسترسل فى ابتداع التشبيهات الشعرية الجميلة ، والاستعارات اللطيفة ليصبح أشد تمكناً من النفوس ، وأبلغ وقعاً ، وأبعد أثراً .

ولم يتأثر الشعر العربيّ وحده ، فى ذلك الأوان ، بالظروف الجديدة الطارئة ، ولم يخضع بمفرده لسنة التطور الحتمية ، ولكن حدث مثل ذلك أيضاً للأنواع الأدبية العربية الأخرى ؛ فإذا الخطب تحتل من عالم الأدب مكانة مرموقة ، وتتكاثر

كمًّا ، وترتقى أسلوباً ومضموناً ، وتنافس الشعر فى أغراضه ، فتستهدف تعريف الناس بأحوالهم ، وتبصيرهم بما ينفعهم ويضرهم ، وتحذيرهم شر الطامعين فيهم ، وترغيبهم فى الفضائل ، وتنفيرهم من الرذائل ، واستنفارهم إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل . . . وإذا الروايات الموروثة عن الجاهلية يتناولها التعديل والتنقيح ، وتتخذ شكلاً ومضموناً جديدين مستمدين مما غنيت به من إضافات زادتها تشويقاً وإثارة . . وإذا القصص القصيرة تشق طريقها إلى عالم الأدب لأول مرة فى التاريخ ، ولا تلبث موضوعاتها أن تتنوع وتعبر عن مختلف العواطف كالحب والغيرة ، والرحمة بالضعيف المظلوم ، وانتصاره آخر الأمر على الظالم ، وفوزه من دونه برغد العيش واطمئنان النفس . ومن أهم أنواع تلك القصص النوع المعروف باسم مصارع العشاق . وأغلبها يعبر عن الحب الشريف العفيف ، وعن الإيثار والبذل والتضحية . وهى وإن اختلفت شكلاً عن القصص القصيرة الحديثة لا تختلف من ناحية المضمون عن كثير منها . ولا يعجب لذلك من يعرف أنها كانت النبع المتدفق الذى اشتقت منه أوربا أنواعاً منوعة من موضوعات قصصها منذ العصر الوسيط . . . وظل التطور يحدث أثره ، فظهرت القصص الخيالية ، وازدهرت بعد أن أصبح لها جمهور شعبى كبير تشوقه الأحداث العجيبة ، والمغامرات الغريبة . وأهمها قصص « ألف ليلة وليلة » التى قيل إن بواكيرها مقتبسة من أصل أجنبى . ولكن الطابع العربى المصرى الذى تميزت به ، أو تميز به الجانب الأكبر منها ، يدل على أنها اكتسبت الأصالة والاستقلال ، وفتحت فتحاً جديداً فى عالم القصة . فهى وإن كانت من مبتكرات الخيال ، أو بدا أنها تستهدف فى المقام الأول تشويق القارئ وتسليته ، تختلف اختلافاً كبيراً عن الأساطير الوثنية ، والقصص الخرافية الأجنبية ، إذ يحرص مؤلفوها فى الواقع على نقد مجتمعهم ، وكشف ما يتناهب أفراده من نوازع الخير والشر ، وتبصير الناس بعواقب السلوك الحسن والسلوك السيئ . وقد نجحوا فى تغليف مقاصدهم التربوية بقوالب فنية شائقة .

وفى صدر الإسلام ظهرت أيضاً ألوان من الأدب جديدة كل الجدة ، مثل الرسائل ، وهى أشبه بالمقالات ، ومثل البحوث العلمية والتربوية ذات الصبغة الأدبية ، ومثل المقامات . . . ولعل المقامات هى أهم ما استجد وقتذاك فى عالم

الأدب ، لا سيما مقامات الحريرىّ التى حظيت بشهرة واسعة فى البلاد العربية وفى أوربا على سواء ، فهى تتميز بأنها طرقت لأول مرة باب النقد الساخر ، وصورت شخصيات نموذجية يكشف سلوكها عن العيوب الاجتماعية ذات الخطر .

والذى يمتحن الحركة الأدبية الأوربية منذ غزو العرب لجنوب فرنسا حتى عصر النهضة لا يحتاج إلى تنقيب وتدقيق ليدرك مدى تأثرها بتلك الأنواع الأدبية العربية التى ذكرناها ؛ فسيبدو له فى وضوح ما طرأ على الشعر والقصة فى فرنسا من تغير مفاجئ على أثر تخطى الأدب العربى لجبال البرانس . وأهم سمات ذلك التغير الذى طرأ عليهما اتجاههما ، كما قلنا ، إلى التعبير عن الأحاسيس والمشاعر الطبيعية المتولدة من التجربة الواقعية ، وتصوير مشاهد الحياة الحقيقية ، بدلاً من التعبير عن أوهام ومخاوف خيالية ، وتصوير حياة خرافية لا تمت إلى الواقع بصلة . ولم يلبث أن انتقل هذا التقليد الأدبى الجديد إلى إيطاليا وألمانيا وإنجلترا ؛ وما تأثر به الرأى العام والذوق العام ، حتى امتدت جذوره ، ونمت فروعه ، وسار قدماً فى طريق التطور ، وأصبح تصويره للواقع أكثر دقة ، ثم أصبح أبعد عمقاً ، وبزغ فجر نهضته الكلاسية ، وظهرت المسرحيات النقدية الساخرة إلى جانب المسرحيات الدرامية والتراجيدية ؛ وهذه المسرحيات المقتبسة من أصول إسپانية هى أيضاً ممتدة من جذور عربية . وما اشتد الإقبال الشعبى على الأدب حتى ظهرت القصص المنسوجة على منوال ألف ليلة وليلة ، والقصص الخيالية التى تجرى فيها الحكم والمواعظ على ألسنة الحيوانات ، ثم قصص المغامرات البطولية . وفى القرن التاسع عشر دارت الدورة الأدبية دورتها ، وظهر من جديد نوع القصص التى تعكس الصراع الحقيقى الذى لا يدور فى معمعان الحروب فحسب ، ولكن فى معترك الحياة الاجتماعية أيضاً . . . بيد أن هذا النوع لم يكن مجرد تكرار للقصص الواقعية القديمة ، ولكنه سما إلى مستوى أدبىّ ملائم لما بلغه المجتمع الأوربى من تقدم حضارىّ .

وقد حار كثيرون من مؤرخى الأدب الأوربى فى تعليل ما طرأ على ذلك الأدب من تغير منذ عصر النهضة ؛ وعبر جون فريفيل عن هذه الحيرة بقوله : « من أين استمد مبدعو الآداب والفنون تلك الحماسة للحياة ، وهذا الميل المتلهف إلى لاستطلاع ، وهذا التشبث بالبحث والتحليل ، وهذه الحاسة النقدية المرهفة ،

وهذا التفاؤل المنتصر ؟ . . . »[١]

هذه السمات الإنسانية التى طرأت على الأدب الأوربى فى العصر الوسيط ، وتساءل جون فريڤيل عن مصدرها ، هى فى الواقع سمات غلبت على الأدب العربى منذ تدرجه فى مراحل نموه الأولى ، ثم ازدادت وضوحاً وتبلوراً بعد توفر الظروف المعينة على رقيه ونضجه ، لا سيا بعد انتقاله إلى الأندلس ، وتأثره هناك بملابسات موطنه الجديد .

لقد حقق العرب فى شبه الجزيرة الأندلسية انتصارات عسكرية متعاقبة ، فتملكتهم نشوة الظفر ، وأشعرتهم بالطمأنينة على مصيرهم فى غربتهم ، وبثت فيهم روح التفاؤل ، والفرحة بالحياة . وما استتب لهم الأمر فى مهجرهم حتى راحوا يهيئون لأنفسهم فى أرجائه أسباب إقامة رغدة . فاهتموا أول ما اهتموا بتوفير ما يحتاجون إليه من ضرورات الحياة كالمأكل والملبس والمأوى ، فشقوا الترع وزرعوا الأرض ، وشيدوا الدور ، وأقاموا المنشآت الصناعية . ثم جاء دور الاهتمام بالمطالب المعنوية بعد المطالب المادية ، فبنوا القصور التى لا تزال تعد من أروع آيات الفن المعمارىّ ، وزخرفوها بأبدع النقوش ، وفرشوها بأثمن الرياش ، وجملوها بأنفس التحف ، وأحاطوها بالبساتين الباهرة التنسيق ، المزدانة بالنوافير والتماثيل . . . ونشطت العلوم لتساعد الصناعات على التطور والتقدم ؛ وتحققت نهضة صناعية كبيرة أدت إلى اتساع المدن وتكاثر عدد سكانها . وأحرز الفن رقيًّا جديداً بما اكتسب من خبرة ، وبما تهيأ له من جو حضارىّ ملائم لذلك الرقىّ .

ونشطت التجارة متمشية مع نشاط الصناعة ، وعادتا كلتاهما بالربح الوفير على المشتغلين بهما ، وازداد الدخل العام فازداد انتعاش أسباب التقدم الحضارىّ . ومال القادة وأصحاب المال إلى الترفيه عن أنفسهم بعد عناء العمل ، فترامت من نوافذ قصورهم أصداء الغناء والعزف والرقص ، واستبد بالناس الميل إلى الطرب ، فانتشرت مسارح عامة تقام فيها حفلات أشبه بحفلات القصور ، وإن كانت أكثر تواضعاً . . . وبين جدران هذه المسارح تطور الرقص ، وارتفع مستواه ، واحتاج إلى ضبط إيقاع العزف ليزداد إتقاناً ، ومن ثم كانت نشأة الإيقاع الموسيقى المتزن

---

(١) كتابه السالف الذكر ص ٦٢ ، ٦٣ .

الذى استطاعت الموسيقى الأوربية بفضله أن تبلغ ما بلغته من أوج — وقد أحدث هذا الجو الفنى المتطور الصاعد أثره فى النفوس التى ازدادت رقة وتهذباً ، وعرفت ذلك الحب الذى لا يستثيره جسد المرأة . ولكن يستثيره الفن الرفيع الذى يخلع على المرأة ، بل يخلع على الوجود بأسره ، جمالاً قدسيًّا يستل الغرائز الدنيا ، ويبعث بدلاً منها أنبل العواطف وأسماها .

وانعكس أثر ذلك كله على الشعراء ، بطبيعة الحال . فقد افتتنوا بمشاهد الجمال التى ابدعتها عبقرية الإنسان مستعينة بعبقرية الطبيعة ، وانتشوا من نفحات الرياض محملة بأنفاس الأزهار والورود . ورقصت قلوبهم على وقع ألحان العزف والغناء ، واكتوت ضلوعهم بضرام الحب . وألحت عليهم أحاسيسهم الجياشة ملتمسة لها متنفساً ، وحفزتهم إلى التعبير عنها بذلك الشعر العاطفى الغنائى الراقص الذى صادف هوى فى نفوس العرب المتأثرين بالحياة الاجتماعية الجديدة ، بل صادف هوى أيضاً فى نفوس الأوربيين الذين كانوا قد أخذوا بأسباب الحضارة العربية ، وأحاطوا أنفسهم بمقومات الحياة الأندلسية . وظهر فى مقاطعة پروڤانس الفرنسية ، شعراء حاكوا ذلك الشعر كما قلنا . وهم الذين عرفوا باسم الشعراء التروبادور ، أى الشعراء المطربين . وقد طال حديثنا عنهم فى بعض فصول هذا الكتاب ، وعن مدى تأثرهم بالشعر الأندلسى ، ونحن نستكمل هنا ذلك الحديث بنقل بعض ما قاله بيير ديكس فى معرض المقارنة بين منظومات الشعراء التروبادور ، والملاحم الأسطورية التى انتشرت فى أوربا قبل ظهورهم . . . أشار ذلك الكاتب فى مؤلفه : « القصة فى سبعة قرون » — وقد سبق ذكره — إلى ثلاث قصص منظومة ظهرت فى فرنسا خلال القرن الثانى عشر هى « طيبة » و « أنياس » و «طروادة الحديثة» ، وقال عنها : « إنها لون جديد فى الأدب الفرنسى يختلف عما سبقه كل الاختلاف . . . ». وكاتبو تلك القصص عاشوا حقًّا فى عصر انتشر فيه الفكر الإغريقى القديم ، ولكن الجدير بالذكر أن الفكر العربى ذاع خلاله أيضاً ، وعم أرجاء العالم الأوربى الغربى . . . » . . . ومما قاله كذلك فى كتابه المذكور « ليتحدث من يشاء كما يشاء ، دون حرج ، عن هذه الإنسانية المستفيضة التى فجرتها مفاتن الطبيعة . . وعن تلك الجدة اليانعة التى تميز بها ذلك الشعر المنقطع النظير ، لا سيما حين يصف

اضطراب قلب المرأة وهو واقع فى حبائل الحب . . . إن عظمة ذلك الشعر لا تتصل من قريب أو بعيد بذلك القلق الذى ينتاب الإنسان من القدر المكتوب الذى يحسب ألا مهرب له منه ؛ وإنما تقوم على الإيمان بالحياة والإنسانية ، وعلى التغنى بسحر الربيع . . . لقد تبدل العالم الإغريقىّ الوثنى فى هذا الشعر الجديد ، وبدأ صوت المرأة يتردد فى أبياته العاطفية ، فى حين كان ذلك الصوت لا يعلو فى الشعر القديم إلا لينادى بالويل والثبور . » وقال أيضاً فى صفحة ٩٥ من ذلك الكتاب : « عرفت الطبقة الفرنسية ذات السلطان فى مطلع القرن الحالى عشر ذلك اللون الجديد من الحب العفّ السامى ، وخضع الأدب فيه كل الخضوع لاتجاهات الشعراء التروبادور . . . » وعاد إلى طرق هذا الموضوع فى صفحة ٩٧ من كتابه السالف الذكر إذ قال : « . . . ونشأ فى أوربا لون جديد من الشعر يسمو على ما سبقه من منظومات ، ويعرض عن ذكر آلهة الملاحم القديمة ، وأساطير أوڤيد ، ويستبدل بها الحقائق الواقعية . . . » وقال آخر الأمر فى صفحة ٤١٥ من كتابه المذكور : « يستطيع المنقب فى القصص المنظومة التى انتشرت فى أوربا خلال تلك الحقبة ، وفى أعمال الشعراء التروبادور القصصية ، أن يجد وجه الشبه القريب بينهما ، فأشخاص تلك القصص تتشابه هنا وهناك ، وكذلك يتشابه ترتيب القوافى فى كلا الشعرين » .

هذه الخصائص التى اكتسبها الشعر الأوربى منذ مطلع القرن الثانى عشر ، وأقر الباحثون الغربيون المنصفون الذين سبق ذكرهم بأنها مقتبسة من الأدب العربى ، تجلت أيضاً فى شعر تشوسر الذى استطاع بعبقريته الخلاقة أن يفيد منها على أحسن وجه ، وأن يطورها ، ويرتفع بها إلى مستوى أعلى ، ويمهد بها سبيل تطور الشعر الإنجليزىّ ، وبلوغه الذروة التى قصر عنها غيره من شعراء سائر الأمم . وكذلك تجلت فى أعمال الشعراء الإيطاليين الأفذاذ من أمثال « دانتى » و « پلوتارك » ، وسيأتى شرح ذلك تفصيلاً فى حينه .